

أخطاء الفلسفة المادية

أنور الجندي

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

ان اخطر ما يحاول دعاة التغريب والماديون وأصحاب الفلسفات أن يقولوا انهم انما يصــدرون فيما يقولون به من نظريات وايديولوجيات ومذاهب عن أساس عملى لا يقبل النقض ونحن نعــلم أن هناك فارقا بعيدا جدا بين العــلم وبين الفلسفة وبين معطيات العلم التجريبى القائمة على البحث والتجربة على النحــو الذى يتم داخل المعامل وبين الفرضيات التى لم تؤكدها التجربة بعد . أو التى قال بها العــلم فى مرحلة ما ثم جاءت تجارب أخرى غيرت هــذه المسلمات وتخطتها ، ذلك أن الخطأ والخلط انما يجىء نتيجة تبنى الفلسفات لبعض مؤثرات العــلم أو نظرياته ونقلهــا من مجال العلم التجريبى أو من مجال الدراسات البيولوجية ودراسات الطبيعة الى مجال المفاهيم الانسانية وقضــايا النفس والاجتماع والأخلاق . بينما لا تصلح أساليب العلم التجريبى فى التطبيق على شئون الانسانيات من نفس واجتماع وأخــلاق ، هــذه التى يجب أن تدرس وفق منهج آخر غير مناهج العلوم المادية .

اذا اتضح هــذا المعنى أمكن النظر فى ســهولة ويسر الى ذلك الحشد المتعدد من المصطلحات والمفاهيم التى تختلط بين العلم وبين الفلسفة ، أما فى مجال العــلم فهى تدرس دراسة خالصة ، وأما فى مجال الفلسفة فانها تخضع لكثير من الأهواء والدوافع .

وقد ظهرت نظريات متعددة فى مجال العـــلم البيولوجى ثم لم تلبث أن نقلت الى مجال العلوم الاجتماعيـــة كحقائق مسلمة ومن ذلك مفهوم التطور ومفهوم تنازع البقاء وقد تبين من بعد أن تقبل هذه الفرضيات ليس سليما على اطلاقه وأن تطبيقه فى المجال الاجتماعى ليس صحيحا دائما .

ومن العجب أن النظرية المادية قامت من بعدها النظرية الماركسية على فرضية كشفت أبحاث العلم من بعد خطأها ، قامت النظرية المادية وكذلك الماركسية على أساس القول بأن الحياة كلها من عقلية ونفسية وسلوكية صادرة من مادة عضوية ، وهـــذه الفرضية لا تعد الآن من الحقائق العلمية ومعنى هذا أن أساس الفلسفة المادية والنظرية الماركسية قد انهـــار من الأساس . كذلك فان القول بالتطور المطلق الذى جعله هربرت سبنسر مفهوما اجتماعيا قد سقط نتيجة لمفهوم آخر أصلح منه هو مفهوم الثوابت والمتغيرات كذلك فان فكرة الجوهر الفرد التى قامت عليها الفلسفات سقطت بنظرية النسبية وظهور مفهوم الطاقة التى تتحول الى مادة والمادة التى تتحول الى طاقة ، كذلك فان نظرية النسبية نقلت الى المجال الاجتماعى القول بنسبية الأخلاق وارتباط القيم الأخلاقية بالمجتمعات والعصور وهذه النظرية وجدت معارضة شديدة لأنهـــا تخالف الفطرة وطبائع الأشــــياء . كذلك فان نظرية الجبرية التى حاولت بعض المذاهب تطبيقها على التاريخ والحضارات والمجتمع قد تبين فسادها لأنها تلغى التزام الأفراد ومسئوليتهم وتلغى ارادتهم بينما التاريخ كله من عمل الأفراد .

وكذلك تبين خطأ القول بتنازع البقـــاء وتبين أن تعاون

الكائنات أطهر وأقوى وأكبر أثرا من تنازعها . وأن نظرية تنازع البقـاء انما ظهرت نتيجة ملاحظة محـدودة لمجتمع محـدود .

ويرجع هذا كله الى منطلق الفكر الغربى أو الفلسفة الغربية الذى يقصر النظرة على المادة وحدها بينما ينطلق الفكر الاسلامى الى آفاق أرحب والى نظرة لها أبعاد أكثر وضوحا وقوة .

فالفكر الاسلامى يؤمن بأن الثبـات والتغير من القوانين الطبيعية فى حيـاة البشرية والانسان وفى الكون نفسه . وان هناك أفلاكا ثابتة وكواكب متحركة . وان لكل شىء اطارا لا يتغير وانما تتغير الحركة فى داخله .

فالانسان فى صورة خلقه وفى حياته يتحرك داخل اطار واضح محدود منذ الولادة الى الوفاة ، وقد تتغير الأساليب والملابس والوسائل ولكن تبقى القواعد الأساسية ثابتة ، النوم واليقظة ، والسكون والحركة ، والطعـام والشراب ، هناك قيم ثابتة ولكن أساليب العمـل بهـا تتغير وتتطور من عصر الى عصر ومن بيئـة الى بيئـة حسب الظروف والحاجات .

والانسان يتغير دائما من حيث الحركة ولكن له اطاره الثابت من حيث أصول الحياة والفكر وأصول البقاء .

وكذلك فان الانسان يتحرك فى الحيـاة فى اطار من القيم والتعاليم والضوابط والحدود . ويخضع لقوانين الأخـلاق

والتعامل بما يتكامل معه مع مسيرة المجتمع كله ، اخـــذا وعطاء ، وحيث تنتهى حريته عندما تبدأ حرية الآخرين .

ومن هنا فان مفهوم الاسلام يقوم على اساس ثبات القيم الأخلاقية والآداب الانسانية التى هى من أصول ثبات الطبيعة البشرية وفيما عدا ذلك فان هنـــاك تغيرا وتبديلا وتطورا دونما انقطاع ، هذه القيم الثابتة من الدين والأخلاق والحدود والضوابط هى التى تقى المجتمع الانسانى من الفناء والهلاك ، وهى القانون الثابت الذى لا يتغير مع تغير العناصر المختلفة فى المجتمع .

وهكذا نجـــد ثوابت الكون فى الطبيعة وثوابت الأخلاق فى الانسان ومتغيرات الكون ومتغيرات الانسان ، وكأنما نظام السلوك الانسانى مطابق لواقع النظام الكونى .

وثبات السنن الالهية فى الكون والانسان هو اطار حركة المتغيرات ولقد كان الفكر الغربى فى مرحلته اليونانية يؤمن بالثبات المطلق ، ثم جاء هيجل فنقله الى التطور المطلق . وكلاهما صـــدر عن نقص فى النظرة وعجز عن استقصاء الأبعاد المختلفة التى جاء الدين الحق ليكشف عنها للانسان وليدله عليها وليجعل فكره اكثر رقيا واعمق فهما .

ومن هنا فان الفكر الغربى هو فكر انشطارى يمر اليوم بمرحلة التطور المطلق الذى لا يتوقف عند حد والذى يجرى فى غير اطار من الثوابت ومن ثم يتعرض لكثير من المعاطب والأخطـــار .

أما الفكر الاسلامى فهو فكر متكامل جامع ، يربط بين القيم فى توازن رقيق وتناسق معجز ، فالحياة يقابلها الموت والفقر يقابله الغنى والجبن يقابله الشجاعة والروح يقابلها المادة ، والكون كله ثنائيات متلاقية فيه ، ليس فيه واحد لا ثنائية له ولا تعدد الا الله تبارك وتعالى ، ومن شأن هذا الفهم أن يعالج أزمة الفكر الغربى التى تقوم على الصراع والتناقضات ، ذلك أن المفهوم الكامل من شأنه أن يقضى على المتناقضات ويذيب الصراعات .

فليس وجود الأضداد دليلا على خصومتها وتعارضها ولكنه سبيل الى تكاملها والتقائها فالضد يولد من الضد ، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى . ذلك أن النور يكشف الظلام والحق ينسف الباطل .

أما الفكر الغربى الذى اثر فكرة التطور المطلق وحجب فكرة الاطر الثابتة فقد عجز عن فهم هذا الالتقاء وعده صراعا ، وتناقضات .

أما الاسلام فقد وفق بين المتناقضات فى اطار التكامل وعلى قاعدة التوازن وليس فى هذا ما يوصف بأنه ازدواجية بل هو التكامل الذى يوفق بين الأضداد والمتناقضات ويسلكها فى طريق الحركة الطبيعية .

ولقد يعجز الفكر الغربى عن فهم التكامل والالتقاء بينما هو طبيعة طيعة للفكر الاسلامى الذى يقوم على التكامل بين الزمنى والروحى والمطلق والنسبى واللانهائى والمحدود .

ومن هنا يمكن القول بلغة الفلاسفة أن الاسلام يجمع بين المنطق الشكلى والمنطق الجدلى بين منطق أرسطو القائل بثبات الموجودات ومنطق هيجل القائل بتغير الموجودات الدائم . وبذلك يقيم قانون « الثوابت والمتغيرات » فالاسلام يجمع بين الأصول العقائدية الثابتة وبين الاجتهاد فى الفروع والتفاصيل والتطبيقات (وهو ما نسميه التطور) ويقول بتغير الأحكام النوعية مع تغير الأزمنة والأمكنة وهو ما يسميه الفقهاء اختلاف زمان ومكان لا اختلاف حجة وبرهان ذلك أن الاسلام منهج الهى من حيث الأصول ، ووضعى بشرى من حيث التطبيق والتفاصيل ، أصول الهية على أساس التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة فهو لا يسحق الفرد لصالح الجماعة ولا يسحق الجماعة لصالح الفرد فاذا استحال التوفيق اختار الاسلام المصلحة الجماعية ، وهذا هو التوازن الدقيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة . ومعنى هذا أنه لا انفصال بين ما هو مادى وما هو روحى فى الاسلام ، ومنهج الاسلام أصول الهية وتفسيرات بشرية وعن طريق هذا المفهوم لا يجد المسلم ذلك القلق الفلسفى الواسع الذى يشغل الباحثين حول : التناقض والصراع والجبرية وتنازع البقاء .

* * *

فساد نظرية الجبرية

الى أى حد يمكن أن يصل بالحضارة الغربية وبالفكر الغربى ذلك التصور الذى يجتاح العصر كله ويحاول أن يلقى بظله على الفكر الاسلامى ويجد من المثقفين العرب من يتبناه ويردده : هذا الفهم الخطير للجبرية والحتمية الذى يستمد منطلقه من الفلسفة المادية والذى يذهب بعيدا ليكون عاملا خطيرا فى تصرف الانسان وسلوكه ، وما هى صلة ذلك كله بنظرية الخطيئة الأولى فى الفكر الغربى المسيحى ، وعلاقته بالوجودية وبالأدب وبالأخلاق .

لنستعرض هذا النص الذى يمثل وجهة نظر عامة الآن بين كتاب الغرب لنرى معه الى أى حد نستطيع أن نفهم الموقف:
النص للكاتب الغربى الأمريكى « ماكسين جرين » يرى الانسان الحديث أنه وليد قوى اجتماعية واقتصادية وبيولوجية تحدد دوره فى الأرض دون أن يشعر هو نفسه على الاطلاق . ان فقدان الانسان لكرامته واعتزازه بنفسه يرجع الى التقدم العلمى الضخم فى القرن التاسع عشر الى أمثال دارون وهكسلى وماركس الذين أظهروا الانسان فريسة لقوى ضخمة مظلمة لا سلطان له عليها ، وهكذا وجد

التفكير الجبرى وظهر هذا التفكير فى الأدب فى أعمال أصحاب المذهب الطبيعى فى كل بلد هؤلاء الذين حلوا محل الأبطال لشاعرين بذواتهم مخلوقات سلبية مطاوعة أنتجتهـــا قوى الوراثة والبيئة لا صلة لهم بها بل لا وعى لهم بها وقد اختفت بطولة الانسان بفضل المذهب الطبيعى » هذا النص يتحدث عن « جبرية القوانين الطبيعية » وخضوع الانسان لهـــا : هذه تريد أن تفرض وجودها على الفكر الغربى كله : ليس الفكر الماركسى وحده ولكن الفكر الليبرالى أيضا ، فقد تغيرت الجذور القديمة التى كانت تستمد من الفلسفات المثالية وغيرها رؤية تتمثل فيها ارادة الانسان وساد الفكر الغربى اليوم تنام كامل ترتبط فيه كل المذاهب بهذه الجبرية والحتمية . سواء فى دراسات علماء النفس ، أو علماء الاقتصاد ، أو علماء الاجتماع ، أو علماء التاريخ أو فى مذاهب الأدب والفن والشعر والمسرح والقصة ... الخ .

هذا التحول الخطير اساسه المذهب المادى الذى يعد الآن بمثابة القاعدة الأساسية للاتجاهين المختلفين فى الفكر الغـــربى : ليبرالى وماركسى ، فردى واجتماعى ، أدبى وعلمى . وهـــذا هو أبرز وجوه الخـــلاف اليوم بين الفكر الاسلامى وبين هذا الفكر جملة .

فاذا ذهبنـــا نستقصى المصـــدر الأول لفكرة الحتمية أو الجبرية وجدناها فى تلك القوانين التى اكتشفها الانسان للكون عن طريق العلم الحديث ، دون معرفة مصدر هـــذه القوانين ، والاعتقاد بأنها قوانين طبيعية حيث تدبر الطبيعة نفسها فهى لا تتخلف . وفى هذا الاعتقاد خطأ أكبر وخطأ أصغر . أما الخطأ الأكبر فانه من المستحيل أن تدير الطبيعة

نفسها بمثل هــذه الدقة لأنها لم تخلق نفسها ولابد لهــا من خالق اساسا ثم هو نفسه تبارك وتعالى الذى يديرها لحظة بعد أخرى . ومن هنا فان هذه القوانين مخلوقة لله تعالى وهو القادر على ابطالها . غياب هذا الفهم عند الفكر المادى جعل النظرية قائمة على شق واحد منها هو حتمية هذه القوانين واغفال الجانب الهام منها وهو صانعها ومدبرها والقادر على ابطالها .

ومن هنا يصور العلماء الحتمية بأنهــا : هى خضوع الأشــياء لمبــدأ التغيير للقوانين الضرورية وهــذا يعنى أن الأحداث تترابط فيما بينها وفق قوانين موضوعية ومن هنا فان الحتمية هى انكارها المصادفة والاحتمال وحرية الارادة وأخطر ما فى الحتمية هى انكارها حرية الارادة ، ذلك أن الحتمية لا تتفق مع ارادة التغيير ، ومن هنا فهى تعطل هذا الجانب الهام الذى هو مصدر أصيل فى انشاء التاريخ وتلغى دور الانسان فى التغيير .

وهى فى هــذا تخالف الأنسان من جانبين : من جانب عجزها عن فهم قدرة الله المطلقة وقدرته على خرق القوانين وتغيير الواقع وقصورها عن فهم ارادة الانسان التى منحها الله اياه ، داخل الارادة العليا للكون كله .

والفارق يسير جدا فهو فى نظر المسلم أن العوامل الظاهرة للحدث أو للقــانون ليست هى وحدها العوامل الحقيقية ، وأن هناك عوامل أخرى تخفى وهى من ارادة الله ومشيئته التى هى أكبر من الأسباب نفسها ، والقادرة على تعطيل الأسباب أو امضاء الأسباب من غير أن تحقق النتائج المترتبة

عليها . ونحن نطلق خطأ على هذا الجانب المجهول من قدرة الله والذى لا يخضع للقوانين الظاهرة : المصادفات والاحتمالات والظواهر غير المنظورة تقريبا للأمور . والواقع أن الحتمية تقوم على نظرية مادية خالصة .

أما الانسان فله دوره وارادته الذاتية التى تحقق له التصرف الذى به يكون مسئولا عن عمله ، فى دائرة صغيرة ولكنها بعيدة الأثر فى احداث التغيير .

((ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) .

والفرد يستطيع أن يمارس ارادته فى تغيير الواقع والمجتمع بقدر استفادته من قوانين الحركة .

والانسان له ارادة فاعلة وهى جزء من ارادة الله يتميز بها عن الحيوان وهو يتحرك فى دائرة خاصة ويكون مسئولا فى حدودها ، ولكنها لا تمثل الا شطرا يسيرا من ارادة الله الكبرى التى تخلق التأثيرات العامة للمجتمعات والأكوان أما الحتمية فهى لا تتفق مع ارادة التغيير ، لأن الحتمية تفترض أنه لا ارادة من جانب الانسان ، وهى بذلك تعد الانسان متفرجا ازاء حركة التاريخ يرى ما يحدث له وللمجتمع دون ان يشارك فيه وهذا القول مخالف للواقع ولطبائع الأشياء .

ومن هنا فان القول الذى يردده جبريو التاريخ كماركس والذى يقول ان التاريخ محكوم المسار فى مستقبله فهو غير صحيح وكل النبوءات التى قدمها ماركس فى هذا الصدد قد تبين كذبها ولم تتحقق — جميعا — وما وقع فى المستقبل بعد تنبؤات ماركس كان مخالفا تماما لما قرره بناء على حتمية

التاريخ أو جبريته فى حدود النظرية التى قدمها ، ذلك لأن ماركس ليس الا بشرا يعجز عن الاحاطة ونظريته ليست الا شطيرة ترتبط بعنصر واحد من عناصر التأثير وهى الاقتصاد وتقوم فى مرحلة زمنية محدودة وبيئة لها طابع خاص ومن هنا فقد عجز وعجزت عن تفسير المستقبل فضلا عن اخفاق ماركس فى تحليل التاريخ القديم .

ولا ريب أن النموذج البشرى الذى تقوم عليه فكرة الجبرية هو نموذج انسان سلبى خامل كسول ، مستسلم للواقع ، متنازل عن حقه الطبيعى فى الاختيار مؤثرا للأمان والجبن وعدم المجازفة وبذلك يفترض فى هذا الانسان أنه تطبيق للحتمية المادية الخادعة الكاذبة .

والمسلم لا يقر هذا المفهوم ، السلبى ، ويؤمن بالارادة ، وبالقدرة على الاختيار والحركة لتغيير الواقع ، ويجعل من ارادته البشرية قوة قادرة على حكم الغرائز وقيادتها والسيطرة عليها .

وهذا هو السر فى دعوة الاسلام الملحة لبناء الارادة .

وكذلك الأمم فانها حين تخضع للجبرية تموت ، لأنها تستسلم وتداس بالأقدام ، أقدام الغزاة والغاصبين ، والارادة والاختيار هما عاملا التغيير فى الفرد وفى الجماعات والأمم ، وبقوانين هذه الارادة تقوم الأمم وتتجدد ، ولا ريب أن التقدم مرتبط بتنمية ارادة التغيير ، فاذا فقدت الأمة هذه الارادة ، استسلمت للجبرية التى هى الانحطاط .

ولا ريب أن تفشى هذا المفهوم فى الفكر الغربى فى هذه

المرحلة من انهيار الحضارة هو علامة على مرحلة سقوطها الذى تنبأ به كثير من الباحثين ، والذى هو سمة كل الحضارات والأمم التى تستسلم للجبرية الممثلة فى الترف والانحلال والفساد والاباحية .

وكما يرفض الاسلام الجبرية التى تجعل الانسان متفرجا على التاريخ ، كذلك فان العلم يرفض الجبرية ولا يراها حقيقة أساسية . وكل ما يقال عن أن الجبرية الحتمية هى علم فهو من قبيل الخداع : فالعلم لا علاقة له بهذه الأبحاث التى هى من شأن الفلسفة وانما هم اطلقوا عليها كلمة فلسفة العلم لأنهم حاولوا أن يستمدوا مفهوم المادية من بعض نظريات العلم التى كانت فى القرن التاسع عشر تقول بانبثاق هذا الكون بدون صانع وقد سقطت هذه النظرية التى قامت على أساسها مذاهب سياسية واجتماعية كثيرة كالماركسية والوجودية والبرجماتية مثلا . ولقد تقدم العلم الآن تقدما عجيبا وألغى كثيرا من النظريات العلمية التى لم تكن فى واقع الأمر الا « فرضا » لتغطية الجوانب الناقصة فى عملية البحث ، غير أن التجربة المستمرة كشفت عن اشياء جديدة جعلت كل ما كان يقال من قبل فاسدا وخاصة فيما يتعلق بالطاقة والمادة فقد اثبت العلم أن الطاقة تتحول الى مادة وأن المادة تتحول الى طاقة وبذلك انهدم أساس الفكر المادى وتحطم كثير من القواعد التى تقوم عليها الفلسفات المادية .

ولكن دعاة هذه المذاهب انما يهدفون الى هدم المجتمع البشرى باحلال روح الفساد فيه واسقاط الارادة ووضع مسئولية الخطأ والانحراف على المجتمعات ، واعلاء شأن المفهوم الجمعى للقضاء على الفردية التى هى مناط المسئولية

والجزاء فى الدين الحق ، وذلك من شأنه أن يدفع الى مزيد من غلبة الشهوات وتبرير الفساد وسقوط المجتمعات وهو ما تهدف اليه اليهودية التلمودية فيما أشارت اليه فى بروتوكولات صهيون .

وعندما نراجع اصول الجبرية فى الفكر الاسلامى نجد أن مصدرها يهودى فهو مما قال به الذين حملوا سموم الفكر البشرى القديم والفرنسيون يقولون ان الانسان ليس ارادة ولا اختيارا ولا تأثيرا ولا جزءا كسبيا ولذا لا يرونه جديرا بالمدح ولا بالذم ، أما اليهود الفروشيم فقد بالغوا بالاختيار ورأوا الانسان قادرا على مطلق عمل دون أمر الله ونهيه . وكلا الأمرين الجبر المطلق والاختيار المطلق لا يقرهما الاسلام . وفى الفلسفات الهندية والصينية والفارسية جبرية واضحة اذ أن البرهمية والبوذية والمزدكية تبرره ، كذلك الفلسفة اليونانية فان حرب طروادة قد حملت سواد الناس على التسليم المطلق بالجبر ، وكذلك فلسفات التقمص والتناسخ كلها مفضية الى الجبرية .

وكذلك تحمل فكرة وحدة الوجود معنى الجبر فهى تلغى الارادة والمسئولية الفردية وصدق فى هذا قول القائل : ان الاختيار المطلق يكلف الانسان فوق الطاقة والجبر المطلق محو للتكليف وهدم للشريعة وابطال لحكم العقل وانكار للواقع .

والاسلام لا جبر فيه ولقد نادى القرآن بالتخيير : فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وأخذ الرسول بيد طلاب

الهداية لربهم ، ودعا الاسلام الى الارادة : والصبر وعزائم الأمور ، ودعا الى تغيير الواقع الفاسد ودعا الى الهجرة فى الأرض حتى لا يظلم الانسان نفسه بالبقــاء فى الواقع السلبى .

ولقد أقام الاسلام الاختيار ونادى به القرآن ((**فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه**)) .

وقال ابن تيمية : ان للعبد قدرة ومشيئة وعملا فهو مختار مريد . والجبريون هم المعطلون للتكاليف الشرعية المسفهون للخطابات الالهية . وقال النابلسى انهم زنادقة هذه الأمة .

ولقد فتح الاســلام الباب واسعا أمام الذين ينحرفون الى الجبر مع قدرتهم على الحرية والاختيار وفتح لهم باب العودة الى الارادة الصحيحة .

ورسل الله ودعاة الحق فى كل جيل وعصر لم يأمروا بالانحراف ، ودعوا الى الارادة والاختيار التى تنشأ عنها المسئولية والجزاء ، ولكن المنحرفين من أصحاب الفــكر البشرى هم الذين زينوا للناس الحلول والاشراق والتجسد وغيرها من المفاهيم الباطلة المبطلة التى تدعو الى الجبرية ثم جاء الفكر الفلسفى المادى المعاصر فاحتوى كل هذه العناصر وأعاد صياغتها من جديد .

ومن عجب أن العلم بالتجارب العديدة لم يعد يعبر نظرية الحتمية : التى كان يقوم عليها كيانه فأصبح حين تتوافر الشروط والأسباب يحكم بوقوع النتائج وذلك لأنه وجــد

عشرات من الأشـــياء لا تخضـع لهــذا القانون ، ومن ثم فان العلماء الآن يقررون أن الحتمية فى العلم غير ضرورية وأن القانون الذى يحكم العلم هو قانون الاحتمالات وبذلك انفسح لهم المجـــال للايمان بقوة عليا تسير العالم خارج نفسه .

ولكن رجال الفلسفة المادية ، وهم اليهود التلموديون أصـــحاب بروتوكولات صهيون انمـــا يريدون أن يتجاهلوا حقائق الفطرة وآراء العلم وطبيعة الدين الحق ، ليفرضوا على البشرية نظرية زائفة يراد بها تدمير المجتمعات : تلك هى الجبرية والحتمية .

ولقد صدق القائل : ان الانسان لا تجوز عليـــه الحتمية لأن الناس ليسوا كرات بليارد تتحرك بحتمية قوانين فزيائية ولكنهـــا مجموعة ارادات حرة تدخل فى علاقات متعـــددة يستحيل فيهـــا التنبؤ القـــائم على قوانين مادية ، كذلك فان القوانين الاحصائية هى قوانين اجمالية وكلهـــا ترجيحات ولا يرتفع أحدها الى مرتبة الحتمية على الاطلاق .

* * *

فساد نظرية ((تنازع البقاء))

ومن الفرضيات التى قدمها العلم تحت التجربة نظرية « تنازع البقـــاء » وقد تعالى القول بهـــذه النظرية وامتد حتى خيل للناس أن هناك قانونا يطلق عليه تنازع البقـــاء وفى أفق الفكر الاسلامى والثقافة العربية ردد الباحثون هذا المصطلح سنوات وسنوات ، وتبين من بعد أنه لا توجد حقيقة علمية تسمى تنازع البقاء ، وأن كل ما يقال عن التنـــازع أو الصراع ليس من طبيعة العلاقات بين الأحياء .

لقد جاءت فرضية التنازع نتيجة لتقدير مادى بأن انتاج الطعام فى العـــالم محدود بينما التوالد يتضاعف ويزداد ، ومن هنا فلابد أن يتنازع الأفراد لأجل البقـــاء أو من اجل الحصول على الطعام ، ولكن نظرية انتاج الطعام المحدود التى قال بها « مالتوس » ثبت بطلانها من بعد فقد اكتشفت آفاق عديدة للموارد والرزق ونما العالم وتضاعف عشرات المرات دون أن يفقد القوت وهذا عيب النظريات التى تكون دائما محدودة بقدر معين من العلم فى عصرها وبالتحـــدى الخاص ببيئتها وبالتأثر بنظرية جزئية أخرى ، نجـــد هذا تماما عند دارون ونجده عند ماركس ونجده عند فرويد .

وقد حاول أنصار دارون تبرير موقفه ودافعوا عنه فقالوا أنه استمد نظرية تنازع البقاء فى الطبيعة من اقامته فى لنكشير وغيرها من الأقاليم الصناعية وكانت نظرية دارون فى مجموعها — وهى نظرية بيلوجية — مما استخدمه الفكر السياسى الاستعمارى خاصة فيما يتعلق بتنازع البقاء وبقاء الأصلح فقد طبقوها على الشعوب المستعمرة والقوى الاستعمارية المسيطرة عليها وجعلوا منها مبررا لسيطرة المستعمرين .

فشلت نظرية دارون فى تنازع البقاء وبقاء الأصلح وتبين للباحثين والعلماء أن هناك « تعاونا » بين الأنواع أكبر من التنازع ، وهناك تلاقيا أقوى من الصراع وفى هذا يقول أحد الباحثين : ان عواطفه الاجتماعية التى اكتسبها من المزاحمة الصناعية فى لانكشير ومن كفاح الامبراطورية البريطانية لخطف الأسواق واذلال الأمم هذه العواطف حملته على أن يكبر من شأن التنازع : تنازع البقاء . وحال هذا بينه وبين رؤية التعاون فى الطبيعة ، لأن الواقع أن البقاء عن طريق التعاون بين الحيوان والنبات أكبر وأوسع من البقاء عن طريق التنازع .

وكما سقطت نظرية التطور كما أرادها الفلاسفة الاجتماعيون ، وسقطت نظرية مالتوس فى الوراثة ، كذلك سقطت نظرية « تنازع البقاء والفكر الاسلامى واضح فى هذا تمام الوضوح فهو يقر مفهوم التلاقى والتعاون والتكامل بين قوى الطبيعة المختلفة ، ويرى أن هذا الالتقاء هو دافعها الى الحركة والقوة والنماء » .

ويرى الفكر الاسلامى ضرورة التعاون فى المجتمع الانسانى بجميع أفراده ، القوى والضعيف ، والغنى والفقير ، والمريض والصحيح ، ويحمل الاسلام الأقوياء والأغنياء والأصحاء مسئولية باقى أفراد المجتمع بنظام كامل من انظمة الاعاشة والانفاق والبذل .

ويرفض الاسلام تماما فكرة القضاء على الضعفاء أو الفقراء أو المرضى ويراها عاملا من عوامل الخروج عن الايمان « **أنطعم من لو يشاء الله أطعمه** » واذا كانت نظرية تنازع البقاء قد بدأت فى مجال العلم الطبيعى فان علماء الاجتماع أرادوا أن يجعلوها قانونا عاما للبشرية ولكنهم فشلوا فى ذلك وتبين من التجارب المتعددة قيام التعاون بديلا عن التنازع .

ومن هنا كان زيف كل التفسيرات التى حاول بعض الماديين القاءها شأن المواقع التاريخية واندثار الحضارات وانقراض الأمم .

ومن الحق أن الصراع لم يكن هو مصدر انهيار الحضارات أو انقراض الأمم وانما كان الفساد والانحراف والاستعلاء والترف والتحلل والخروج عن نظام الكون وقوانينه الطبيعية التى تفرض العمل والارادة وبذل الجهد والاستمساك بالخشونة فى الحياة والحفاظ على الضوابط والحدود .

ومما ينقض نظرية تنازع البقاء أن الحيوانات الواطئة الضعيفة تعيش وتنمو . وفق قانون التكيف مع البيئة الذى هو أصدق من قانون تنازع البقاء ، ذلك أن كل كائن

يستطيع أن يحتـاط ويتكيف مع الظروف اذا كانت هـذه من الطبيعة كالبرد والحر أو من مقاومة الأعداء .

ويصـدق قانون التكيف مع البيئة بينما تفشل نظرية « تنازع البقـاء » ويؤكد الباحثون أن فساد نظرية تنازع البقـاء ترجع أساسا الى أنهـا تعارض الطبيعة والفطرة وتكشف عن تحد واضح لانطلاقة الحياة فى صورتها السليمة . فهى تؤدى الى حرمان الضعفاء من حق الحيـاة وتشجيع الأقوياء على التسلط والسيطرة ، وتبيح الحرب وتعتبرها ضرورة فى يد القوى لاهلاك الضعيف .

ولما كان من طبيعـة القوى أن يسيطر على الأضعف فقد دعا الاسلام الى أن يتمسك أهله بالقوة فى مواجهـة كل من يحاول الاعتداء عليهم ، وكذلك دعا الأفراد الى الهجرة من الأرض التى يقع فيها الاذلال لهم حتى لا يكون المسلمون موضع سيطرة من غيرهم أو تسلط من عدوهم .

والحق دائمـا يثبت والباطل دائمـا يرتفـع ثم ينهزم لأنه لا يستطيع ان يواجـه ثبـات الحق وسلامته وقدرته على الانتصار والبقاء . وعلى أهل الحق ان يلتمسوا نصر الله بالاستعداد لمعارضة الباطل ومقاومته .

ويقر الاسلام نظام « التعاون » بديلا لمفهوم « التنازع » ومن هنا فان الأنظمة التى تقوم على الصراع لابد أن تسقط لأنها تمثل اتجاها مضادا للحق والخير ، الذى هو الناموس الطبيعى للحياة . ومن شأن « الفطرة » التى فطر الله عليها الكون والناس أن تمكن للحق من هزيمة الباطل والادالة له ،

ومن شأن أهل الحق أن يكونوا فى يقظة حتى لا يستشرى الباطل ويكسب الجولة عليهم ، فاذا فقدوا مقومات عقيدتهم ، تغلب الباطل عليهم لا محالة ، فكان حقا عليهم أن يعودوا الى التماس مقومات عقيدتهم ويتجمعوا لها ، ومهما كانوا قلة فان تمسكهم بالحق مع معونة الله يحتم تحقيق النصر لهم ، وهذا هو مفهوم دفع الله الناس بعضهم ببعض ، وهو معنى يختلف عن النظرية الغربية « تنازع البقاء » .

ويجمع الباحثون على أن « الصراع » فكرة استعمارية نشأت فى ظل الفكر الغربى الاستعمارى الذى اعتمد على القوة كوسيلة للسيطرة على الضعيف على النحو الذى سارت عليه عمليات الاستعمار والاحتلال والحروب الاستعمارية ، تبريرا للاستيلاء على موارد الغـــير وممتلكاته بالقوة والعنف . ولقد رحب الماديون بفكرة دارون لأن عقيدتهم تقوم على العنف وصراع الطبقات .

اما القرآن فقد ذكر أن « الصلاح » هو سبب بقاء الأمم والحضارات فى الدنيا وهو عدة الضعفاء المتقين فى التغلب على الأقوياء المنحرفين .

❊ ❊ ❊

ولاريب أن من اخطر ما تروج له الفلسفات الغربيـــة كلمة « الطبيعة » حيث ينسب اليها العطاء والمنع والكشوف والقوانين ، ولا ريب أن هذا معارض تماما لمفهوم الدين الحق فان الخالق هو الله وليس الطبيعة ، والطبيعة مخلوقة لله ، مذللة له سبحانه . أما كلمة الطبيعـــة فى مفهوم العـــلم فهى عبارة عن قوانين سقوط الأجسام ودورانها ومغناطيسيتها وهى قوانين تعبر عن قدرة الله فى خلق الكون والانســـان وليس فى الاســـلام صراع بين الله والطبيعة فالكل يسلم ويسجد طوعا وكرها .

وكل ما كشفه العـــلم الحديث ليس الا قشورا صغيرة من علم الله الأكبر ، وما استطاع العلم أن يصل الى تفسير ظواهر الأشياء . ومن أخطر مقاتل العلم الحديث أنه فصل بين المادى والروحى فى العلم وأنكر الروحى ، يقول الكسى كاريل : ان الغلطة المسئولة عما نعانيه أنها جاءت من فكرة لجاليليو فقـــد فصل جاليليو بين الصفات الأولية للأشياء وهى الأبعاد والأوزان التى يمكن قياسها بسهولة عن صفاتها الثانوية وهى الشكل واللون والرائحة التى لا يمكن قياسها فقد فصل الكم عن النوع (الكيف) ولقد جلب الكم المعبر عنه باللغة الحسابية والعلم ، بينما أهمـــل الكيف . لقد كان تجريد الأشياء عن صفاتها الأولية أمرا مشروعا ولكن التغاضى عن الصفات الثـــانوية لم يكن كذلك فالأشـــياء

غير القابلة للقياس فى الانسان أكثر أهمية من تلك التى يمكن قياسها فوجود التفكير هام جـدا مثـل التعادل الطبيعى الكيميائى لمصـل الدم ، ولما اتخـذت التركيبات العضوية والألباب الفسيولوجية حقيقة أكبر كثيرا من التفكير والسرور والحزن ، والجهل ، دفعت هذه الغلطة الحضارة الى سلوك طريق أدى الى فوز العلم والانحلال الانسانى ، ولابد أن يعيد الانسان صياغة نفسه وأن الخطأ الذى بدأ به كان أنه أعلى شأن الكم على الكيف ، هذا الخلل المروع فى بناء الحضارة ، الانسان الذى حقق تسخير المادة واطلاق الطاقة لا يزال أقرب الى الغابة فى العقل والتدبير ذلك أن الدين هو الحماية : هو الحائط العريض الحاجز عن الخطر ، هو انسان الانسان الذى ينقله من الغابة » .

ومن هذا المنطلق وقع المحظور ، وتوالت الأخطاء ، واندحر الانسان الذى تمزق فى الغرب .

* * *

دار العلوم للطباعة

القاهرة : ٨ شارع حسين حجازى (القصر العينى)

ت : ٣١٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٩/١٤٥٠

الترقيم الدولى ٢ — ٣٣ — ٧٣١٨ — ٩٧٧